رحلة ماركو بولو

بقلم
الدكتور محمد محمود الصياد
أستاذ الجغرافية ووكيل كلية البنات بجامعة عين شمس

— ١ —

فى المرحلة الأخيرة من الحروب الصليبية التى امتدت من سنة ١٠٩٦ إلى سنة ١٢٩١ حدثت فى منغوليا أمور مفاجئة هزت العالم المعروف ، وأحدثت فيه أثراً عميقاً ، من الصين حتى الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فقد حدث والقرن الثانى عشر الميلادى يلفظ أنفاسه الأخيرة أن ظهرت على مسرح التاريخ قبيلة مغولية جديدة هم « التتار » ؛ أقرباء الهون القدامى . وبسرعة توطد نفوذهم وامتدت سيطرتهم على المنطقة بين بحيرة بيكال ونهر آمور .

وقد ابتكر هؤلاء القوم وسيلة للحرب جديدة ، هى من صنعهم دون غيرهم ؛ وبهذه الوسيلة اجتاحوا العالم بنفس أسلوب الدبابات الذى اجتاح به هتلر أوربا فى العصر الحديث ؛ فلم يعتمد التتار على سلاح المشاة كما كان يفعل غيرهم ، بل كان اعتمادهم على جيش من الخيالة سريع ، يعيش فرسانه فى حركة دائبة ، ولديه القدرة على أن يقوم بما يرسمه من حركات الالتفاف ، ومن ثم كانوا أقوى من أن يواجههم جيرانهم الذين تتسم حركتهم بالبطء ، بل وكانوا أكثر قدرة على الحركة من ذوى قرباهم الهون وهم يغزون الاستبس الأوربية .

ولم تأت سنة ١٢١٥ حتى كان زعيمهم الكبير جنكيز خان قد أخضع كل القبائل المغولية وكون منها حكومة واحدة ، وبدأ بشن غاراته على الصين ، ونجح فى النهاية فى الاستيلاء على بكين ، ولكنه لم يكمل فتحه للبلاد ، واكتفى بما حصل عليه من غنائم ونفائس وبأميرة صينية تزوجها ، وولى وجهه نحو الغرب يكتسح كل ما صادف طريقه من ممالك وشعوب ، وعندما مات كانت إمبراطوريته تمتد من البحر الأصفر حتى الخليج العربى والبحر الأسود، وكانت إمبراطورية أقامها الغزو الذى كان أكثر سرعة وأعظم حسما من غزو الإسكندر المقدونى . وفى مدى أربعين عاماً كان التتار قد اجتاحوا سهول وسط أوربا ولم يحل بينهم وبين بلوغ ساحل المحيط الأطلسى إلا أراضى الغابات فى ألمانيا ، فهم قد اعتادوا الحركة السريعة فى أرض السهوب ، والغابات لا تعين على هذه الحركة ولا بد لها من أسلوب مختلف فى الحرب والقتال .

واهتز البابا فى روما لهذا الخطر الوافد من الشرق ، وود أن يعرف شيئاً عن إمبراطور المغول الذى لم يقف

أمام جيوشه شيء ، فأرسل فى سنة ١٢٤٥ راهباً شيخاً من الفرنسسكان يدعى يوحنادى كاربينى John de Carpini ممثلا شخصياً له إلى الخان الأعظم وكان قد أصبح كيوك خان حفيد جنكيز خان الذى تولى الحكم بعد أبيه أوكتاى قا آن وقطع كاربينى ثلاثة آلاف ميل على ظهور الجياد مجتازاً جنوب الروسيا والتركستان إلى طريق الحرير الشمالى ماراً ببحيرة بلكاش . وفى أقل من أربعة شهور وصل الراهب محملا بالهدايا الفاخرة إلى بلاط الخان الذى كان قد أقيم على ضفاف نهر يجرى إلى بحيرة بيكال ، وكان من حسن حظه أن حضر جلسة « القوريلتاى » التى سوف ينصب فيها كيوك رسمياً « خاناً أعظم » .

ويحدثنا الراهب عن نفسه فيذكر أنه كان ذا بنية قوية ، ولا شك أنه كان أيضاً ذا قلب قوى ، وإلا لما استطاع أن يتحمل أخطار الطريق ، وأن يسافر على ظهر جواد يقطع به فى المتوسط ثلاثين ميلا فى اليوم الواحد وكان كاربينى أول رائد حقيقى يأتى من أوربا إلى هذا الجزء من العالم ، وكان مؤلفه « كتاب التتار » وصفاً واضحاً مفصلا لما كان بالنسبة للعالم الغربى كشفاً أصيلا .

وبعد سنوات ست قام بالرحلة راهب فرنسسكانى آخر ، أصغر سناً من كاربينى ، ولكنه لم يكن أقل منه جسارة ، وهو « وليم الروبروكى » الذى أرسله لويس التاسع ملك فرنسا مبعوثاً إلى الخان الأعظم ، وقد سلك نفس الطريق الذى سلكه كاربينى ولكن انتقاله كان بالعربة فى معظم الأحوال ؛ وانتهى به المطاف إلى مقابلة الخان الأعظم « منكو قا آن » فى نفس المكان الذى قابل فيه كاربينى أباه وسلفه فى الحكم كيوك خان ، وقد ترك « وليم الروبروكى » كتاباً فيه وصف مفصل ممتع للحياة بين التتار ، ولكن شأنه شأن كاربينى لم يذكر شيئاً عن الصين إذ كانت الخانية لم تنتقل بعد إلى تلك البلاد .

وبينما « وليم الروبروكى » لا يزال بين التتار ، كان هناك تاجران بندقيان يشقان طريقهما فى اتجاه الشرق هما نيقولو بولو وأخوه مفيو . فمن يكون الرجلان ؟ ولأى غرض يشدان الرحال ؟

— ٢ —

لنترك الشرق بأسراره ، ولننتقل إلى رأس البحر الادرياتى ، فهناك تقوم البندقية الجميلة على جزرها المائة والعشرين ، وكانت قد أصبحت منذ سنة ٦٩٧ جمهورية يحكمها دوق يصل إلى مركزه بالانتخاب ، ودرت عليها التجارة أرباحاً طائلة فأصبحت قوة بحرية يخشى بأسها ، وتمكنت من فتح دلماشيا وقبرص وكريت وغيرها من جزر اليونان ، وحكمت البحر المتوسط « كملكة على البحار » .

وفى سنة ١٠٣٣ وفد على البندقية أسرة هاجرت من الساحل الدلماشى هى أسرة بولو ، وتوطد الأسرة مركزها فى العاصمة ، فلا يمضى وقت طويل حتى نجد دومينيكو بولو فى سنة ١٠٩٤ عضواً فى المجلس الأعلى للجمهورية .

ثم نسمع بعد ذلك عن اندريا بولو من سان فليس San Felice وله ثلاثة أبناء يعملون فى التجارة هم ماركو ونيقولو ومفيو ، ونعرف من وصية الأول التى كتبها فى البندقية فى أغسطس من عام ١٢٨٠ أنه قد أقام فترة من الوقت فى القسطنطينية ، وكان له بيت فى ميناء « سوداق » فى شبه جزيرة القرم ، وكانت قد أصبحت إحدى الموانى الخمس الكبرى فى العالم كما يروى ابن بطوطه الذى زارها فى نحو سنة ١٣٣٠ م .

وكان لماركو هذا تجارة يظهر أنها كانت واسعة مزدهرة ، وكان يشاركه فيها أخواه ، وقد استمرت الشركة بين الإخوة الثلاثة زمناً طويلا ، ولم تتأثر بغياب اثنين من الشركاء فى الشرق الأقصى بضع سنين ، ويبدو أن حباً عميقاً كان يربط بين أبناء أندريا بولو ، فحين

رزق نيقولو بابنه الأول أسماه ماركو باسم عمه الأكبر ؛ وكان هذا الولد هو الذى اختارته الأقدار ليلمع اسمه دون سائر أفراد الأسرة ، وأن يذيع ذكره فى الآفاق كرحالة كبير .

كانت تجارة آل بولو تتطلب من الأخوين نيقولو ومفيو أن يتجولا فى البلاد ، وفى سنة ١٢٦٠ وجدا نفسيهما فى القسطنطينية ، وفيها استقر عزمهما على أن يعبرا البحر الأسود ليريا كبير التتار وهو الخان المقيم فى «سراى» عسى أن يجدا سوقاً نافقة للتجارة بين قبائل خانية القفجاق ، التى لم تكن سوى جزء من تلك الإمبراطورية المغولية الضخمة التى امتدت من البحر الأصفر حتى حدود بولندا والمجر وبلاد البلقان .

ولم يكن الرحالة فى ذلك العهد البعيد يهتمون بالوقت . كانوا يسيرون ما طاب لهم السير ، وقد يطول بهم المقام فى مكان ما لأنه أعجبهم ، أو لأنهم وجدوا فى الإقامة فيه مغنما ، ولم يكن أحد منهم يضع برنامجاً موقوتاً لرحلته . لقد خرج يقصد مكاناً ما وكل ما فى حسابه أن يبلغ هذا المكان فى زمن قد يقصر أو يطول فما للوقت من حساب ، والعجلة من الشيطان .

ويصل الأخوان إلى بلاط « بركه » خان القفجاق ، وكان من أوائل أبناء جنكيز خان الذين اعتنقوا الإسلام واشتهر دون خانات المغول بالتسامح ، وأغلب الظن أن ما سمعه الأخوان عن تسامحه هو الذى حدا بهما إلى التفكير فى زيارة أراضيه ، ولم يخيب بركة آمالهما فقد استقبلهما على أطيب وجه ، واشترى بضاعتهما بأضعاف ثمنها الحقيقى ، وطابت للرجلين الإقامة فى «سراى» ، وزاد ربحهما من التجارة مع سكانها فقضيا على ضفاف الفلجا الأدنى عاماً كاملا ، ولو كان الخيار لهما لبقيا فيها أعواماً طوالا ؛ ولكن الحرب تنشب بين زعماء التتار ؛ وهل كانت حياتهم إلا سلسلة من الحروب متصلة الحلقات ؟ .

ويلقى بركة الهزيمة على يدى هولاكو . ويجد الأخوان أن السلام الذى عاشا فى ظلاله حيناً قد انتهى ، ولا يضار بالحروب والمنازعات أحد كالتجار ويظن الأخوان أن العودة بنفس الطريق الذى جاءا به غير مأمونة ، فيغامران بمواصلة الرحلة نحو الشرق ، ويوغلان فى مجاهل أرض التتار حيث السيطرة لخانات بيت الجغطاى .

عبر الأخوان نهر الفلجا ، واجتازا صحراء لا توجد بها مساكن ثابتة ولا تسكنها إلا قبائل رعوية متنقلة من التتار ، وهذه هى منطقة الاستبس والصحارى الممتدة بين الفلجا وآرال ، وما أن تنتهى هذه الصحارى حتى تظهر أرض بخارى وسمرقند وواحات الصغد الغنية التى كان يعدها الكتاب المسلمون إحدى جنات الأرض الأربع ، وفى بخارى يجدان أنهما لا يستطيعان مواصلة السير ولا يقدران على العودة ، فيقضيان فيها اضطراراً ثلاثة أعوام .

وتصل إلى المدينة العظيمة قافلة من قوافل التتار ، ويثير وجودها فى الأخوين الرغبة فى مواصلة السفر نحو الشرق ، فينضمان إلى القافلة التى كانت فى طريقها إلى الخان الأعظم مرسلة من أخيه الأصغر هولاكو ، وتواصل القافلة السير حتى خان بالق التى تقع غير بعيد من بكين الحالية ، سالكة طريقاً قليل المشقة نسبياً يمتد على طول الجانب الشمالى لحوض تاريم .

كان قوبيلاى قا آن (١٢٦٠ — ١٢٩٤) أعظم خانات المغول بعد جنكيز خان ، وقد سره أن يمثل الرجلان البندقيان فى حضرته ، فلم يكن قد رأى أوربيين من قبل ، وراح يمطرهما بوابل من الأسئلة عن دول الغرب وحكامها ونظمهم الحربية ، وعن البابا والكنيسة الرومانية ، وعن الشعوب اللاتينية وتقاليدها وأنماط معيشتها . وأجاب الأخوان فى صدق وصراحة بلسان التتار الذى كانا قد تعلماه .

وتاق الخان الأعظم إلى أن يعرف المزيد عن المسيحية ، فقرر أن يبعث الأخوين برسالة إلى البابا يطلب منه أن يوفد إليه مائة من المسيحيين يتميزون بالذكاء ، ويعرفون « الفنون السبعة » ، وتكون لديهم القدرة على أن يثبتوا أن الأصنام من صنع الشيطان ، وأن شريعة المسيح خير من الشريعة التى يتبعها الخان وقومه ، وطلب أن تعود إليه البعثة بشىء من زيت القنديل الذى يضىء فوق قبر المسيح فى القدس .

ويقضى الأخوان ثلاثة أعوام فى رحلة العودة حتى يبلغا عكا — وكانت لا تزال قلعة للصليبيين — فى أبريل من عام ١٢٦٩م ، وفيها يصل إلى علمهما أن البابا كليمنت الرابع قد مات وأن الكرادلة لم يتفقوا على انتخاب خليفة له ، ورأى الرجلان أن خير ما يفعلان هو أن يتصلا بالقاصد الرسولى فى عكا — وكان إذ ذاك هو الكردينال تيدالدو فيسكونتى — ويقصا عليه قصتهما . وقدر الرجل أنها فرصة مواتية للمسيحية فطلب إليهما أن ينتظرا انتخاب البابا الجديد . ولم يكن أمام الأخوين إلا أن يتجها إلى البندقية التى غادراها منذ تسع سنين ، وهناك وجد نيقولو بولو أن زوجته قد ماتت ، وأن ابنه الطفل ماركو قد شب وأصبح عمره خمس عشرة سنة

— ٣ —

مضت سنتان ولم يستقر الكرادلة على اختيار بابا جديد ، واستبد القلق بالأخوين نيقولو ومفيو ، فلم يدر بخلدهما أن سيظل الكرسى البابوى شاغراً كل هذه المدة ، وفكرا فى الوعد الذى أعطياه للخان الأعظم بالعودة ، فشرعا فى رحلة جديدة وأخذا معهما ماركو الصغير ، وقصدا عكا حيث التقيا بالقاصد الرسولى تيدالدو ، وأخذا منه رسالة إلى الخان توضح سبب تأخرهما فى العودة إلى بلاطه ، وبعد أن زارا بيت المقدس وحصلا على الزيت الذى كان الخان يرغب فى الحصول عليه لمجرد حب الاستطلاع ، أخذا سفينة قاصدة ساحل أرمينية الصغرى ليبدآ من هناك رحلتهما عبر قارة آسيا .

وحدث وهم فى أرمينية أن انتهت خلافات الكرادلة واعتلى عرش الكنيسة بابا جديد هو الكردينال تيدالدو نفسه ، الذى اعتلى العرش باسم البابا جريجورى العاشر وكان قد وافق من قبل على مهمة آل بولو ، وهو بصفته الرسمية الآن يريد أن يقتفى أثر البابا إنوسنت الرابع ، فاذا كان هذا قد أرسل كاربينى فى مهمة محددة هى كثلكة المغول والعودة بكنائس الشرق إلى الكنيسة الأم فى روما ، فليرسل البابا الجديد التجار البنادقة السفراء الطبيعيين للتجارة الإيطالية ليكونوا سفراء المسيحية اللاتينية كذلك ، ومن ثم أسرع يطلب من آل بولو أن يعودوا إلى عكا ، فصدعت الجماعة بالأمر وفى عكا زودهما البابا بهدايا ورسائل إلى الخان الأعظم وباثنين من رجال الدين العلماء ولكنهما من الجبناء .

كان قوبيلاى قد طلب مائة من علماء المسيحية وها هو البابا يبعث إليه باثنين فقط ، وفى نهاية الأمر لا يصل إلى بلاط الخان أحد من رجال الدين ، ذلك أن الراهبين نيكولاس الفيسترى ووليم الطرابلسى وهما من جماعة الفرنسسكان فى عكا لا يصلان إلى أرمينية حتى يأخذا فى انتحال الأعذار للقعود عن الرحلة ، فلا يعبأ آل بولو بالأمر ويأخذون الرسائل والهدايا ويبدأون رحلتهم إلى الصين . وأغلب الظن أن الراهبين لم يضيعا بقعودهما على المسيحية فرصة الانتشار بين التتار ، فقد كان مغول الشرق شديدى التعصب للبوذية ، وكان مغول الغرب عظيمى الإيمان بالإسلام ، وكان تحويل أى من الفريقين عن عقيدته فوق طاقة المبشرين .

وبدأت القافلة الصغيرة رحلتها عبر أرض فارس سالكة الطريق الذى سلكه الإسكندر الأكبر إلى ميناء هرمز عند مدخل الخليج العربى ، وكانت خطة آل بولو أن يسافروا بالبحر إلى بلاد الخطا (الصين الشمالية) ، فقد كانت أخطار الطريق البرى ومتاعبه ، ولمفيو ونيقولو

خبرات بها سابقة ، تدفع بالأسرة إلى أن تبحث عن طريق آخر أيسر وآمن ، ولكنهم فى هرمز عدلوا عن فكرتهم ، ويقال إن السبب فى ذلك أنهم لم يجدوا سفينة حاضرة تحملهم إلى حيث يقصدون ، ويقال إن السبب هو أن ماركو لم يستطع تحمل حرارة الخليج ورطوبته فاعتلت صحته ، ولم يعد فى وسع الجماعة أن تخاطر باتمام رحلتها فى الجو المدارى الحار الرطب ، فقررت العودة إلى الشمال أملا فى أن تتحسن صحة ماركو الشاب .

وخاف البنادقة الثلاثة من المغامرة بالسفر فى بحر الهند فى مراكب ليس لها متانة المراكب التى عرفوها فى بلادهم وعادوا أدراجهم إلى مرتفعات فارس عن طريق كرمان واجتازوا صحراء دشت لوط ووصلوا الحدود الجنوبية لخراسان ، وهنا دخلوا بلاداً معتدلة الجو ، آهلة بالسكان ، غنية بالغذاء والمتع .

وتواصل الجماعة سيرها حتى تصل إلى بلخ ويجعلها ماركو حد فارس من ناحية الشمال الشرقى ومنها تتجه إلى مرتفعات بادخشان حيث يعتمد السكان على الصيد ويعيشون فى كهوف ، وفيما عدا هذه المنطقة فان الإقليم غنى بفاكهته وكرومه وغلاله ، وبالملح « الذى هو من الكثرة بحيث يكفى جميع سكان العالم إلى يوم القيامة » ولكن الحياة ليست على ما يرام فى هذه الأرض الخصبة إذ يسكنها « قوم أشرار متعطشون إلى سفك الدماء ، مسرفون فى شرب الخمور » .

وتسير الجماعة على طول وادى نهر سيحون حتى تصل منطقة البامير المنعزلة وهو اسم نسمع عنه لأول مرة فى كتاب ماركو بولو ، ويقضون إثنى عشر يوماً دون أن يروا « إنساناً أو حيواناً أو طائراً » ويظل أمامهم مسيرة أربعين يوماً عبر الهضبة المقفرة حتى يصلوا إلى كشغر . وكان عليهم أن يحملوا معهم كل ما يلزم لحياتهم وهم يجتازون هذه القفار ، وكانت قافلتهم تتكون من جمال تحمل الأزواد ، وجمالين وخدم ، وكانت الأسرة وأتباعها يمتطون صهوات الجياد ، ولكنهم فى كثير من الأماكن كانوا يضطرون إلى الترجل ليقودوا دوابهم فى المسالك الجبلية الوعرة .

وقبل أن يأخذوا طريقهم إلى كشغر سقط ماركو مريضاً ، وأصبح محتوماً على الرحلة أن تتأخر ، وطال تأخرها إلى سنة كاملة كان على الأب والعم فيها أن يحملا ماركو الشاب إلى مرتفعات بادخشان لينقه ويسترد عافيته ، ويتحدث ماركو فى ملاحظاته عن هواء الجبال العليل وعن خيولها الكريمة وعن الكباش ذات القرون الملتوية التى تسرح فى مرتفعات البامير .

وبعد أن شفى ماركو عبرت القافلة خط تقسيم المياه وهبطت إلى السهول الشرقية فى وسط آسيا ونزلت إلى كشغر ذات الحقول الواسعة والكروم اليانعة والهواء المعتدل ، ووجدت الجماعة نفسها بعد عدة أسابيع من السير المضنى فى مدينة كبيرة تتجمع فيها مظاهر مدنية الشرق فقد كانت كشغر كما هى اليوم من أهم مراكز التجارة فى آسيا الوسطى .

ومن كشغر سارت الجماعة إلى يرقند وخوتان وهى جهات ظلت مغلقة تماماً أمام الأوربيين حتى سنة ١٨٦٠ م . ومن خوتان واصلت السير حتى منطقة لوب نور ثم اجتازت صحراء جوبى إلى منطقة تنجوت فى أقصى الطرف الشمالى الغربى للصين وفيها يمتد سور الصين الكبير . ويتحدث ماركو عن صحراء جوبى أو صحراء اللوب كما يسميها فيصف ما يعترض المسافر فيها من أخطار ويكرر ما رواه سوان تسانج الذى اجتاز هذه الصحراء قبل ذلك بستة قرون ، ولكن حديث الرحالة الإيطالى أروع كثيراً من حديث الرحالة الصينى وأن يكن له فضل السبق .

ويروى ماركو بولو أن طول صحراء جوبى مسيرة عام وأن عرضها مسيرة شهر ، وهى كلها من رمل وجبل وواد لا يوجد فيها شىء يؤكل ، ولا يوجد نوع من الحيوان لعدم وجود ما يقتات به ، ولكن البرية

مليئة بالغيلان التى تظهر بالليل فتنادى من يتخلف عن القافلة باسمه أو تجذبه إليها بأنغامها الموسيقية ويتبع المسكين مصدر الصوت ظناً بأنه إنما يأتى من القافلة فيكون فى ذلك حتفه ، وربما تظهر الغيلان بالنهار وتتشكل فى صور شتى تضلل المسافر ؛ ولهذا كان لا بد للقافلة أن تسير كتلة واحدة وأن تعلق فى رقاب دوابها أجراساً تصدر صوتاً معروفاً .

— ٤ —

وفى أوائل عام ١٢٧٥ م وصل آل بولو إلى بلاط الخان الأعظم فى « شانجتو » وكان قد أرسل حرساً يستقبلهم على بعد أربعين يوماً من بكين ، وسر الخان بلقائهم ، ووجه عناية خاصة إلى ماركو الشاب لما لمسه فيه من نجابة وذكاء ، وكانت مواهب الرحالة الإيطالى فى سرعة تعلم اللغات ، ومظهره الذى يوحى بالثقة والاطمئنان ، مما حدا بالخان إلى أن يجعله محل ثقته ، وأن يدخله فى خدمته .

وفتح الشاب عينيه على عالم جديد يختلف تمام الاختلاف عن العالم الذى عاش فيه فى أوربا والذى تركه منذ ثلاثة أعوام ونصف ، ورأى أشياء لم يكن يحلم برؤيتها ؛ رأى حضارة كحضارة الأوربيين بل ربما تزيد عليها ، ورأى فى الصين شعباً يستعمل أوراق النقد ، ويبنى المبانى الرائعة ، ويستخدم حروف الطباعة ؛ وشهد على مياه الأنهار العظمى ما لا يحصى من المراكب ، وعلى ضفافها مدناً ضخمة يسكنها آلاف الناس ؛ ورأى لأول مرة حجراً أسود يحترق فتكون له نار عظيمة ، ورأى الإسبستوس الذى لا يحترق فى أى نار .

ولاحظ خلال إقامته فى البلاط اهتمام الخان بالبلاد الغربية ، وسخريته من غباوة السفراء والمبعوثين الذين لا ينقلون إليه إلا ما يتصل بأعمالهم الرسمية ، فأخذ يبدى ملاحظاته عن بعض المسائل التى يمكن أن تسر الخان ، ويقص الكثير عن تجاربه ، وكان قصصه مما يطرب له الخان .

وارتفع شأن ماركو بسرعة . حتى لقد ولاه الخان أمر الحكم فى يانجتشاو ثلاث سنوات ، وكثيراً ما أرسله فى بعثات جاب فيها مقاطعات شنسى وشانسى وستشوان والمناطق الوعرة على حدود التبت وبلغ مقاطعة يونان التى كان يسميها المغول كراجانج ، وأوغل حتى بورما الشمالية ، وكانت التقريرات التى يرفعها إلى الخان عن رحلاته محل الرضى والقبول .

وفى مناسبات أخرى زار ماركو كانجتشاو عاصمة تنجوت التى تقع فى سور الصين ، وربما زار قراقورم فى شمالى صحراء جوبى وكانت المقر السابق للخانات العظام ، كما زار كيامبا أو كوشن صين الجنوبية ، وليس لدينا من المعلومات ما يوضح ما إذا كان أبوه وعمه قد شاركاه فى هذه الرحلات وفيما قدمه للخان من خدمات ؛ ولكن من الثابت أنهما ساعدا الخان فى بناء مدفعية قوية عجلت بسقوط سيانج يانج على نهر الهان خلال الحرب ضد الصين الجنوبية .

وأصبح آل بولو من الأثرياء وبدأوا يخشون مما يمكن أن يحدث بعد وفاة الخان . وكان قوبيلاى قد صم أذنيه عن كل حديث يتصل بعودتهم إلى بلادهم فلبثوا فى بلاطه عشرين عاماً . ثم واتتهم الفرصة بمحض الصدفة فقد حدث أن فقد « أرغون » خان فارس وابن ابن أخ قوبيلاى أحب زوجاته فى سنة ١٢٨٦ م . وكانت وصيتها وهى على فراش الموت ألا يشغل مكانها إلا أميرة من قبيلتها ، ومن ثم أرسل أرغون السفراء إلى بلاط بكين ليعودوا بأميرة ، ووقع الاختيار على « كوكاشين » وهى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، وكان الطريق البرى من بكين إلى تبريز تحف به آن ذاك مخاطر الحرب ، واقترحت بعثة أرغون أن تعود بطريق البحر ، وكانت قد التقت بالبنادقة الثلاثة فودت لو

تتمكن من الإفادة بخبرتهم ، ومن ثم التمست من الخان أن يرسلهم فى صحبة الأميرة .

ووافق قوبيلاى على طلب البعثة،وأمر بتجهيز أسطول يتكون من أربع عشرة سفينة وأغدق العطاء لآل بولو وبعث معهم برسائل الود إلى البابا وإلى ملوك فرنسا وأسبانيا وإنجلترا ، وأقلع الأسطول من ميناء الزيتون التى هى تشانجتشاو الحالية فى أرجح الأقوال وكانت على ذلك العهد إحدى موانى التجارة الأجنبية فى الصين فى سنة ١٢٩٢ م . وقضت الظروف أن يتخلف الأسطول فى سومطرة زهاء خمسة شهور كما اضطر أن يلبث فى الهند وقتاً غير قصير .

وانتهز ماركو الفرصة فراح يعاين البلاد التى اضطر إلى النزول فيها ، فنجده يكتب عن التوابل وآكلى لحوم البشر فى سومطرة ؛ ويظهر اهتمام أسرته بالجواهر وهى البضاعة التى كانت تتجر فيها فى وصفه الدقيق للياقوت الملكى فى سيلان واللؤلؤ فى ساحل كرومندل . فلما بلغ هرمز عاد إلى الأرض المألوفة لديه وكان قد مر عامان أو أكثر منذ ترك ساحل الصين ، ومات فى هذه الفترة معظم الستمائة شخص الذين رافقوا الأميرة وآل بولو فلم يبق منهم سوى ثمانية عشر شخصاً .وتصل الجماعة المكدودة إلى بلاد فارس لتعلم أن أرغون قد مات ، ولما كانت الأميرة الصينية لم يقع نظرها عليه من قبل فلم يقلل من سعادتها أن تزف إلى ابن أخيه غازان .

— ٥ —

لم يطل المقام بآل بولو فى فارس بعد أن انتهوا من مهمتهم فواصلوا سفرهم إلى البندقية بطريق تبريز والقسطنطينية فوصلوها فى أواخر عام ١٢٩٣ بعد أن غابوا عنها أربعة وعشرين سنة . ويحدثنا جون بابتست رامسيو John Baptist Ramusio الذى كان أول من كتب سيرة ماركو بولو بعد وفاته بأكثر من قرنين عن وصول آل بولو إلى بيت الأسرة فى ثياب غريبة ، وإنكار الناس من أهل البندقية لهم،والحيل التى لجأوا إليها ليحصلوا على اعتراف المجتمع البندقى بهم .

ثم نسمع بعد ذلك عن ماركو بولو كمحارب ، فقد زادت الغيرة بين البندقية وجنوة خلال القرن الثالث عشر . وفى سنة ١٢٩٨ م قرر الجنويون أن يضربوا منافسيهم البنادقة فى عقر دارهم ، فأرسلوا أسطولا قوياً تحت قيادة لامبا دوريا إلى البحر الادرياتى ، وأعدت البندقية أسطولا أكبر للقاء المغيرين ، وعقدت لواءه لاندريا داندولو وكان على كل مركب بندقى ٢٥٠ بحاراً يرأسهم ربان ، وكان ماركو بولو أحد ربابنة هذه السفن . وتقابل الأسطولان المتعاديان فى السادس من سبتمبر غير بعيد من جزيرة كورتزولا ، وبدأت المعركة فى اليوم التالى ، وانتهت بهزيمة البنادقة ووقع ماركو بولو فى الأسر فابث فيه نحو عام ثم عاد إلى البندقية فى يولية أو أغسطس من عام ١٢٩٩ م .

ولا نعرف سوى القليل عن تاريخ ماركو بولو بعد خروجه من الأسر ، ولكن توجد بعض وثائق فيها إشارات إليه يمكن أن ننسج منها شيئاً عن الرجل ، وأهم هذه الوثائق هى وصيته ، فقد أرسل الرجل وقد اشتد به المرض فى التاسع من يناير سنة ١٣٢٤ فى طلب قسيس وموثق عقود يملى عليهما وصيته ،وتوفى فى نفس اليوم ودفن وفقاً لرغبته فى كنيسة سانت لورنزو ويستفاد من الوصية أنه ترك زوجة تدعى « دوناتا » وثلاث بنات هن فانتينا ، وبلليلا ، وماريتا . وبجانب هذه الوصية نجد فى محفوظات البندقية وصيتى عميه ماركو ومفيو وفى كلتيهما إشارة إليه ، كما توجد بعض الحجج الخاصة بملكية بيت الأسرة فى سانت كرايسو ستوم،ويرد اسم ماركو مرة أو مرتين فى سجلات المجلس الكبير ويلقب فى هذه السجلات بالنبيل ماركو بولو « الألفى » وهو لقب أطلق عليه لما كان يرويه عن رحلاته من قصص عدها الناس شبيهة بقصص « ألف

ليلة » فأطلقوا عليه لقب « الألفى » ، ومما يروى أنه بعد وفاة الرحالة بزمن طويل كان يوجد دائماً فى الحفلات التنكرية التى تقام فى البندقية رجل يمثل شخصية ماركو بولو ويقص على الناس قصصاً يسليهم بها .

وقد ورد اسم النبيل ماركو بولو فى وثيقة بتاريخ ٩ مارس ١٣١١ م وهى حكم فى قضية أقامها ضد بولو جيراردو الذى كان وكيلا له . وثمة وثيقة أخرى هى كتالوج تحف بيت مارينو فاليرو وفيه يرد ذكر عدة أشياء أهداها ماركو بولو إلى أحد أفراد أسرة فاليرو ، ولكن الأثر الملموس الباقى عن ماركو بولو هو جزء من بيت الأسرة الذى أنكر الناس عليه وعلى عميه ملكيته بعد غيابهم الطويل ، وكان الميدان الذى يقوم فيه البيت معروفاً على عهد رامسيو باسم « ميدان الألفى » وهو الآن يحمل اسم ميدان « سابيونيرا » ولم يبق من البيت سوى دهليز ذى عقد تزينه زخارف من طراز القرن الثالث عشر .

وليس لدينا صورة أصلية لماركو بولو ، ولكن يوجد نقش لصورته مؤرخ بسنة ١٧٦١ على حائط Sala dello Scudo فى قصر الدوقات بالبنـــدقية . وأقدم صورة معترف بها لماركو هى الصورة الموجودة فى متحف المونسينيور باديا فى روما وهى صورة جيدة ولكنها ترجع إلى القرن السادس عشر . وقد أطلق الأوربيون فى كانتون اسم ماركو بولو على تمثال فى معبد بوذى هناك يشتهر باسم « معبد الخمسمائة آله » لكثرة ما فيه من تماثيل القديسين البوذيين ، وقد حصلت بلدية البندقية على نسخة منه بمناسبة المؤتمر الجغرافى الذى عقد فيها سنة ١٨٨١ .

ونعرف من كتابات ماركو بولو أنه كان يهتم بمتع الحياة اهتمامه بالعمل ، وكان دقيق الملاحظة ، مغرماً بالصيد والقنص ، وكان متحرراً متسامحاً فهو رغم مسيحيته وعدائه الصريح للهرطقة ، يظهر اعجاباً بالبوذية وتعاليمها ، وكان الرجل محباً للفكاهة ولكنه لم يكن يسرف فى الضحك ؛ ولعل أعظم عيوبه أنه كان ميالا للمبالغة ، فكل بلدة من البلاد البعيدة التى مر بها « عظيمة » وكل شىء فى الصين « يفوق الوصف » وكل تصرفات قوبيلاى من « معجزات الحكمة » ، ولعل للرجل عذره فقد بهرته الأشياء التى رآها وكانت كلها جديدة عليه فكانت المبالغة فى وصفها والحديث عنها .

— ٦ —

كان من الممكن أن تطوى قصة ماركو بولو مع الأيام لولا أنها سجلت فى كتاب ، وكان أسر ماركو هو السبب المباشر فى وضع هذا الكتاب ، فحتى ذلك الحين كان الرجل يقص أخباره على أصدقائه ، وكان بعضهم يستمع إليها كأساطير ، ومن هنا كان تلقيب الرجل « بالألفى » ، وبقدر ما ذاع قصص ماركو بولو بقدر ما كذبه الناس ، وقد حدث وهو على فراش الموت أن جاءه بعض أصدقائه يعودونه ويتوسلون إليه «أن ينكر الأكاذيب التى قصها» قبل أن يلقى ربه فأجاب المريض المحتضر : « إنى وأيم الحق لم أرو نصف ما رأيت ! » .

ووقع ماركو فى أسر الجنويين مع سبعة آلاف من زملائه البنادقة ، وفى سجن جنوة التقى بأسير من أهل بيزا يدعى روستيتشيانو وكان ذا موهبة أدبية فراح يسجل أخبار رحلة ماركو بولو بأملائه ؛ ويقال إن المسئولين فى جنوة قد أذنوا للرحالة بالكتابة إلى البندقية يطلب مذكراته ، وهذا هو الذى يفسر دقة التفاصيل التى سجلها روستيتشيانو عن رحلة بدأت منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً .

ويقع الكتاب الذى صنفه روستيتشيانو فى جزأين : الجزء الأول أو المقدمة كما يسمى، هو لسوء الحظ الجزء الوحيد الذى يتحدث عن سيرة شخصية حقيقية ، وهو يروى الظروف التى ذهبت بالأخوين مفيو ونيقولو بولو

إلى بلاط الخان الأعظم ، كما يصف رحلتهما الثانية التى صحبهما ماركو فيها ثم العودة إلى الغرب بطريق بحار الهند وفارس . أما الجزء الثانى فيضم سلسلة من الفصول تختلف أطوالها ولا يسير بناؤها على منهج معين ، وهو يشتمل على وصف لدول آسيا وولاياتها المختلفة وبعض مناطق من أفريقية ، مع ملاحظات بين الحين والحين عن مناظر تلك البلاد وغلاتها والعادات الغريبة لسكانها والأحداث البارزة فى تاريخها وبخاصة ما يتصل منها بخان المغول الأعظم قوبيلاى وبلاطه وحروبه وتنظيماته الإدارية . وفى آخر الجزء بضعة فصول تتناول الحروب العديدة التى نشبت بين شتى فروع بيت جنكيزخان فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر .

ويكاد يكون هناك شبه إجماع على أن النسخة الأصلية قد كتبت بالفرنسية، وتوجد فى المكتبة الأهلية بباريس مخطوطة بلغة فرنسية غير سليمة وهى التى نشرتها الجمعية الجغرافية فى عام ١٨٢٤ م . ومن الواضح أن هذه المخطوطة قريبة جداً من النسخة الأصلية ان لم تكن هى النسخة الأصلية ، ويظهر عليها طابع عمل أملى فكتب ولم يراجع ، إذ أن بها من الأخطاء ما كان لا بد أن يختفى بالضرورة فى نسخة روجعت أو نسخة مترجمة : وهناك ٨٥ مخطوطة معروفة للكتاب وفى نصوصها اختلافات كبيرة .

ونعرف من فهرس جيل ماليت Gilles Mallet للكتب التى جمعها شارل الخامس فى اللوفر والذى يرجع تاريخه إلى نحو (١٣٧٠ — ١٣٧٥) أن المجموعة كانت تحتوى على خمس نسخ من كتاب ماركو بولو مما يدل على شهرته ، ولكننا نجد من كتاب ماندفيل Mandeville الذى ملأه بالأكاذيب مائتين وعشرين مخطوطة وكثيراً من الطبعات القديمة ، مما يدل على أنه كان أكثر شعبية من كتاب ماركو بولو .

ومن العجيب أن دانتى الذى عاش ثلاثا وعشرين سنة بعد ظهور الكتاب لم يشر أى إشارة إلى ماركو بولو كما لا نجد أى ذكر لماركو فى كتاب معاصره سانيودو الذى تحدث عن كتاب هايتون الأرمينى رغم أنه أقل أهمية ؛ وحتى ماندفيل الذى كان يغير على كتابات معاصريه ومن سبقوه لم يسرق أى شىء من بولو ؛ ولعل الأعمال الأدبية الوحيدة فى القرن الرابع عشر التى يبدو أن أصحابها كانوا على علم بكتاب بولو هى « مدونة » باپينو Papino وكتاب « تاريخ فلورنسا » تأليف فيانى Villani ثم مدونة يوحنا الأبريسى .

ولعل طبعة سير هنرى بول فى شكلها النهائى التى راجعها وأضاف إليها هنرى كوردير (لندن ١٩٠٣) هى أوسع مصدر شامل عن ماركو بولو ورحلاته وتضم الطبعة الدراسات القيمة التى قام بها كبار المعنيين برحلة بولو .

وتوجد الآن من رحلة بولو ١٠ طبعات فى الفرنسية ، ٤ طبعات فى اللاتينية ، ٢٧ طبعة فى الإيطالية ، ١٢ طبعة فى الانجليزية ، ٩ طبعات فى الألمانية ، ٤ طبعات فى الأسبانية ، وطبعتان فى الروسية ، وطبعة واحدة فى كل من الهولندية والدانموكية والسويدية .

— ٧ —

ومن العجيب أن يلمع اسم ماركو بولو بين أسماء الرواد والمكتشفين وأن يظل معدوداً على الدهر بين كبارهم والمشهورين منهم . مع أن الرجل لم يكن مكتشفاً ولا خطر بباله أن يكون ، بل والأعجب أن الرحلة التى قام بها كان قد سبقه إليها كثيرون سلكوا نفس الطريق من قبله عشرات المرات ! فلماذا إذن بقى اسم ماركو بولو مشهوراً مذكوراً ؟ ولماذا غطى اسمه على اسمى أبيه وعمه مع أنهما هما اللذان قاما بالرحلة إلى الصين مرتين ؟ ولماذا ظفر فى تاريخ الرحلات بتلك الشهرة العريضة والاسم الذائع الصيت ؟ الواقع أن ذلك كله يرجع إلى أن الرجل دون غيره ممن سبقوه ترك

وصفاً أميناً مكتوباً للبلاد التى زراها والشعوب التى أقام بينها ، وتحدث عن بلاد وناس لم يسمع بهم مواطنوه من قبل، ومن هنا احتل مكاناً بارزاً فى تاريخ الرحلات والكشوف الجغرافية .

لقد كان ماركو بولو أول من تحدث عن البلاط فى بكين ، وأول من كشف القناع عن غنى الصين واتساع رقعتها، وتحدث عن الأمم التى تقع على حدودها، وأول من ذكر شيئاً عن التبت أكثر من اسمها ، وأول من تحدث عن بورما ولاوس وسيام واليابان وجاوة وسومطرة ، وجزر نيكوبار واندمان ، وجزيرة سيلان والهند كبلاد رآها وارتاد أجزاء منها . وكان ماركو أول رحالة أوربى فى العصور الوسطى يحملنا جنوباً إلى زنزبار ومدغشقر ، ويصل بنا شمالا إلى المناطق النائية فى سيبريا وعلى سواحل المحيط القطبى ، ويحدثنا عن الزحافات التى تجرها الكلاب ، والدب القطبى الذى يمرح على الجليد ، والتنجوس الذين يركبون الرنة .

ولكن الفكرة الجغرافية ليست واضحة فى ذهن ماركو ، وليست تعريفاته بالتعريفات العلمية الدقيقة ؛ فهو مثلا يقيس ارتفاع النجم القطبى بالذراع ! ويدهشه ألا يرى النجم الشمالى فى جزر الهند الشرقية ، ومع أنه يعطينا فى بعض الأحيان المسافات والاتجاهات إلا أنها كلها تقريبية وليست دقيقة ، فمثلا كل طريقه من فارس إلى الصين هو إلى الشرق والشمال الشرقى ، وكل طريقه من بكين إلى فوكين هو إلى الجنوب الشرقى وما هكذا تكون الدقة فى وصف الطرق واتجاهاتها .

وكثير من فصول القصة يكتنفه الإبهام والغموض ، ويكفى أن نشير إلى الرحلة من أرمينية إلى مدخل بحر الهند ، إذ لا نستطيع أن نتبين خط سيرها ، ولا أن نعرف حتى المحطات الرئيسية على الطريق ، مما يجعلنا نعتمد على الحدس والتخمين لنرسم خريطة للرحلة فى تلك الجهات . ويزداد الغموض فى الفصول المتأخرة من القصة، وهى الفصول التى تتناول تاريخ شعوب آسيا وحياتها ، ولكن يجب ألا يثير هذا دهشتنا ، فالتجربة الشخصية ليست هى العنصر الغالب فيما أملاه ماركو بولو على روستيتشيانو ، وليس الكتاب فى جزئه الثانى سوى أشتات من الموضوعات ، ووصف لأشياء متنوعة يقابلها المسافر فى الطريق .

ولا يهتم ماركو بولو كثيراً بالاطار الجغرافى وهو يملى كتابه ، ومن ثم فالكتاب وان يكن يسدى للجغرافية وللجغرافية البشرية بالذات خدمة جليلة ، إلا أنه يتركنا لنستنتج لأنفسنا الطريق الذى سارت فيه الرحلة ، والمواقع النسبية للأماكن التى مرت بها ، وعلينا أن نستخلص لأنفسنا وجهة نظر ماركو بولو من ذلك الحشد الهائل من الملاحظات عن تاريخ آسيا وأديانها وأساطيرها وتقاليدها وتجارتها وغير ذلك من الأمور .

ولكن برغم ذلك كان لرحلة ماركو بولو أثر واضح فى تقدم علم الخرائط ، ويمكن أن نتتبع هذا الأثر فى اثنتين من أشهر خرائط بورتو لانو فى القرن الرابع عشر وهما Medicean Portolano التى ترجع إلى سنة ١٣٥١ م وهى موجودة الآن فى فلورنسا ، وكارتا كتالانا Carta Catalana وتوجد الآن فى باريس ، وتسجل الخريطتان تقدماً ملحوظاً فى الفكر الجغرافى فى العصور الوسطى ، ففيهما محاولة واعية لتمثيل العالم بالرسم على أساس الحقائق المجمعة لا على أساس الدعاوى التى كانت تقول بها الكنيسة ، وكتاب ماركو بولو هو أساس خريطة وسط آسيا والشرق الأقصى ، وهو إلى حد ما أساس خريطة الهند التى رسمت لأول مرة وهى أقرب ما يكون إلى الواقع سواء فى موقعها أم فى شكلها العام، بل وإن خريطة Fra Mauro التى ترجع إلى سنة ١٤٥٩ م لأقل دقة فى تصوير آسيا من الخريطة التى رسمت على أساس كتاب ماركو بولو ؛ ولقد حدث مع الأسف فى القرن السادس عشر محاولة تستهدف ربط المعلومات القديمة بالحديثة فجاءت بنتائج غير مرضية ،

إذ أدى ربط أسماء ماركو بولو بأسماء بطليموس إلى نوع من الخلط فى المعلومات .

ويقع ماركو بولو أحياناً فى أخطاء جسيمة ، فهو يخلط الدجلة بالفلجا وشتان ما بين النهرين ! وفكرته عن بحر قزوين Gleveshelan وان تكن أكثر وضوحاً من فكرة معظم الغربيين إلا أنها بعامة فكرة مضطربة ؛ فبرغم ملاحظة ماركو بولو أنه بحر داخلى يمتد لمسافة ٧٠٠ ميل ويبعد مسيرة إثنى عشر يوماً عن أى بحر آخر وبرغم ما يذكره من التجار من أهل جنوه قد أخذوا يسيرون سفنهم فيه ، يعود فيذكر أن الفرات من روافده ، وهناك من أمثال هذه الهنات شىء كثير .

ويفوت الرحالة أن يتحدث عن أمور ما كان يظن أن يفوته الحديث عنها ؛ فهو يذكر أن المرء يستطيع أن يصل عن طريق النهر الذى يمر ببغداد إلى مدخل بحر الهند عند كيش ، ثم لا يعنى نفسه بأن يقف ولو لفترة قصيرة ليتحدث عن بغداد ، التى كانت لا تزال حتى ذلك العهد أكبر مدن الإقليم ، وكانت أسواقها لا تزال تموج بالتجار ، وكانت صناعات الذهب والحرير لا تزال مزدهرة فيها . وتشير المصادر الأخرى المعاصرة إلى أن المدينة كانت قد استعادت كثيراً من مكانتها القديمة بعد غزو المغول لها فى سنة ١٢٥٨ م وهو الغزو الذى يرجع به ماركو بولو إلى ثلاث سنوات قبل هذا التاريخ .

وإذا جاز لماركو بولو أن يغفل شأن بغداد ، فما يجوز له ألا يشير إلى سور الصين الكبير مع أنه سار بجانبه مسافات طويلة ! وما كان ينتظر منه ألا يذكر شيئاً عن الشاى مع أنه جاب منطقة زراعته فى فوكين ! وأن يغفل طريقة الصينيين فى ضغط أقدام الأطفال من البنات فى أحذية من الحديد لتظل صغيرة ، وكانت عادة منتشرة فى كل أرجاء الصين ! وألا يتحدث عن خصائص الكتابة الصينية وهى تختلف تمام الاختلاف فى أصولها وقواعدها عن الكتابة التى ألفها فى الغرب ! وألا يذكر شيئاً عن الطباعة والصينيون هم مخترعوها ، وعنهم انتقلت إلى شتى أنحاء العالم فأحدثت أعظم ثورة فى تاريخ الثقافة ! ولكننا نجد سبيلا للاعتذار عن الرجل فى عبارته التى حدث بها وهو على فراش الموت وهى أنه « لم يذكر فى كتابه إلا نصف ما رأى » . وربما كانت الأمور التى أشرنا إليها من النصف المهمل المتروك !

ومع أن معظم معارف ماركو بولو فى الصين كانوا من الأجانب وبخاصة التتار والفرس حتى أنه فى العادة يكتب أسماء المدن الصينية كما ينطقها هؤلاء ، فان ما ذكره عن تاريخ التتار ليس من الدقة التى كانت تنتظر من رجل أتيحت له فرصة الاتصال المباشر بأوثق المصادر المغولية ، بل إنه فى الواقع لا يرقى إلى مستوى يوحنا الكاربينى فيما أملاه عن تاريخ المغول ، ولا يصل إلى مستوى وليم الروبروكى أو أودوريك فيما كتب عن عادات الصينيين ، وأغلب الظن أن الرجل لم يكن يقصد أن يكون كتابه شاملا ، بل كان كما يتبين من آخر كلماته يكتفى بأن يتخير من المنجم الضخم الذى تختزنه ذاكرته الأشياء التى تجد هوى فى نفوس مستمعيه

ويذهب البعض إلى أن ماركو بولو قد أدخل بعض المخترعات الهامة إلى أوربا ومنها المطبعة والبوصلة البحرية والبارود ، ولكنه قول يفتقر إلى الدليل وبخاصة فيما يتصل بالمطبعة، فماركو بولو كما سبق أن رأينا لم يتحدث عن عملية الطبع عندما تكلم عن العملة الورقية المطبوعة فى الصين ، مع أن موضوع الطباعة كان مما يسترعى النظر ويدعو إلى الحديث المفصل ! حقيقة أن التشابه الواضح بين أقدم الكتب الأوربية المطبوعة وكتب الصين يبين أن فن الطباعة قد استقى من الصين ، ولكن لا يوجد أى سبب يدعو إلى ربط هذا الموضوع باسم بولو ، ففى القرن الرابع عشر لم تكن هناك بعثات

تبشيرية للكنيسة الرومانية فى شرقى الصين فحسب ، بل كانت هناك أيضاً تجارة برية منتظمة بين إيطاليا والصين ، وربما يكون بعض الرحالة الأخر غير ماركو بولو هم الذين حملوا الكتب المطبوعة إلى أوربا ، وربما يكون بعضهم قد شهد عملية الطباعة بنفسه فنقل إلى الغرب أصولها .

ولكن مهما يكن من أمر فان رحلة ماركو بولو قد قنطرت الهوة بين الشرق والغرب ، وأصبح الطريق البرى مألوفاً ، كما أصبح الطريق البحرى مطروقاً كذلك، فسلكته بعثات التبشير التى كان منها بعثة يوحنا مونت كارفينو الذى وصل إلى بكين بطريق البحر ، وبعثة الراهب أودوريك الذى قضى أربعة عشر عاماً مسافراً من القسطنطينية إلى كانتون بطريق البحر وعائداً منها بالطريق البرى عبر شانسى والتبت وكان أول أوربى يصف لهاسا العاصمة المقدسة للبوذيين .

وكان الغرب قد بدأ يتعرف إلى الشرق ، ولكن الحوافز التى حملت الأوربيين إلى الشرق الأقصى لم يكن لها ما يناظرها فى الجانب الآخر ، فلم يكن الصينيون ولا الهنود جوابى بحار ، ويبدو أنهم لم يجدوا فى جاذبية الغرب ما يكفى لدفعهم إلى المخاطرة .

وكان الإسلام ينتشر بسرعة فى أواسط آسيا فلم يعد هناك مجال للمبشرين ، وكان الذين خلفوا الخان الأعظم أقل منه تنوراً وسماحة فلم يرحبوا بالأجانب ، وعندما انهارت إمبراطورية المغول الضخمة ، انتشرت الأفكار المعادية للاستعمار التجارى الغربى وأصبحت طرق التجارة غير مأمونة أمام التجار الأوربيين ، ووقف الأتراك يسدون الطريق ، ولكن الأوربيين من أهل البحار كان لا يزال يغريهم سحر الشرق وغناه ، فان لم يكن فى استطاعتهم أن يذهبوا إليه براً فان البحر أمامهم مفتوح وهكذا بدأ عصر الكشوف الجغرافية الكبرى الذى كان من أهم آثاره كشف الأمريكتين ، ولقد كان لدى كولمبس ترجمة لاتينية لكتاب ماركو بولو كتبها بابينو Papino ويوجد على هوامش كثير من صفحات النسخة تعليقات بخط كولمبس نفسه تشهد بأن مكتشف العالم الجديد قد تأثر برحالتنا البندقى الكبير .